شعر يوسف غصوب

«القفص المهجور»، و«الموسجة الملتهبة»، و«جمال» على ضوء «الشعر الخالص»

بقلم سعيد عقل

لو كنت ممن يجترّون السنوات ١٩٢٠—١٩٢٧، لأعجبني من شعر يوسف غصوب في «القفص المهجور والموسجة الملتهبة» أبيات تحسب في الأدب العربي بناء، وروحًا:

...مدّوا الدمقس لنا، طول الطريق، على أواسٍ من خيوط الماء والسدودِ
...والخمر تسربُ من كوب، من شفةٍ، إلى التراقي كعقدٍ غير منضودِ

ولكنتُ أدلّل، بمثل هذين البيتين، على أن بين يدي شعرًا عربيًّا لا غبار عليه، وأروح وفي خلدي أني امتدحت الرجل؛ ولكان نبا عن «ذوقي» كلُّ ما في الديوانين من «عجمة» تقتلها الخالد... فأيُّ هذيانٍ هو هذا البيت:

قربت ساعة النفور، ومنت في دجى الليل كبرياء النهارِ؟

أنا أفهمُ أن «تقربَ ساعة اللقاء»؛ لأن العرب قالوا على هذا الغرار، أو — عفوكم — لأن هذا القول على غرار العرب. أما أن يكون «للنهار كبرياء» و«كبرياء تمنت»... فهو روحٌ غيرُ عربي:

«وإذا القلب لم يكن عربيًّا أوشك الشعر أن يشيع فسادا!»[1]

«وفضيلة الشعر مقصورة على العرب»[2].

ولو كنت من المجدّدين سنوات ١٩٢٧—١٩٣٠، يومَ مدرسةُ جبران والي ماضي تلهب «تجديدهم» حماسة متحمّسين، لنظرتُ في ديوان يوسف غصوب آسفًا أقول، وقد أمسكت في ميزان ناحية الحقيقة: «نحن في القرن العشرين،

(١) شفيق جبري في القرن العشرين.
(٢) الجاحظ.

عصر العمل وخدمة الانسانية ، فأيّ حكمة في طبع ديوان ليس فيه حكمة واحدة ؟ » ورحتُ أقول متغنياً : « أين غصوب من هذه الروائع :

والعدلُ في الناس يبكي الجنّ لو سمعوا به ، ويستضحك الاموات لو نظروا(١

واستدركُ ، وقد استشهدتُ ، من « الرابطة القلمية » بنثارها ، لأعود إلى « العميق العميق » من الحكمة :

أيهذا الشاكي وما بك داء ، كن جميلاً تر الوجودَ جميلا !(٢

ذلك أن الشعر ، عهدَ انفتاح العيون على أدب جاليتنا الأميركية — المتأثرة أبدًا بنثري التوراة — كان حكمةً او نصيحة أو وعظة . كيف لا ، والمتخلفون لم يكونوا يطربون إلّا للحكم او يسامرون إلّا الحكماء . ونحن ، تلامذة المدارس يومئذ ، المطوّفين ، على يد الفرنسية والانكليزية ، في الأدب اليوناني ، او الفاتحين ، أقلّه ، العيون الظمأى على الأدب الاوربي الحديث ، كنا — واساتذتنا في العربية مَنْ هُم ! — نُرغم على استظهار وعظةِ ابنِ الوردي « الرائعة » :

اعتزل ذكر الاغاني والغزل . . .

كنا نعرف ، على يد الفرنسية ، أن الشعوب في بدء امرها مزيجٌ من فروسية ووثنية ، من عواطف خشنة على أنها كبيرة ، وقصص حرب مبالغة على أنها واقعة ، واساطير آلهة على أنها جميلة ، تنعكس كلها في قلوب الموهوبين فتكون : الملحمة .

وتدخل الشعوبُ ، وقد خفتت جلجلةُ الخيل والاسنة ، مُدُنَها الساكنة وبيوتَها الآمنة ، مطمئنةً على ذاتها تذكر وتحب وتحن ، فترقّ العواطفُ ، ويدق ما بينها فيكون : الشعر الغنائي .

وتغرق الشعوب في المدنية ، ويُباعد ما بينها وبين فروسية الجاهلية ، فتتضاءل العواطف الكبيرة ، ولا يعود يوقظ النفوس إلّا « رؤية » الأبطال الذين غابوا في ضباب الماضي فيكون : المرسح

---

١) جبران : المواكب

٢) ايليا ابو ماضي

وتهرم الشعوب ، سنّة البقاء ، فلا الملحمة تجدي ولا الغناء ينفع ، ولا المرسح نفسه يحثّ . الشعب يُحتضر ، والشعب كالفرد كلاهما يلذّهُ ، وقد دقت ساعةُ الموت ، أن يسمع حكمة الدهر ويتوب ، فتكون : الحِكَم .

أجل كنا ندرس كل ذلك . لكن الزمام في أيدي الصحف السطحية واساتذتنا المتكمشين، كالجيل الهَرِم ، على الحكمة .

كان الأمر طبيعاً ، كان كل شيء في محله : الحياة في قلب الناشئة ، والاحتضار في الجيل المولي . وكان من الطبيعي أن يصفق الجيل المولي للحكمة وأن يتجه طلبةُ الأمس — قرّاء اليوم — إلى أدب الحياة ، أدب يأبى المواعظ ويأبى الحكم .

وما إن نفلت من المدارس حتى يختنق أدبُ أميركة بعد ازدهار، اللهم إلّا في العراق حيث لا جيلًا جديدًا يذكر إلى جنب هذه الوفرة من النفوس المولية .

❦

ولو كنتُ من المجترّين السنوات ١٩٣٠—١٩٣٥ ، عهد التخمة من الحفلات التكريمية والتأبينية ، يوم التذهب « بالنقمة على المبخرة » يُحسب تجديدًا وابتكارًا ، لكان لي وراء ديوان غصوب شاعر ولا كالشعراء ، ولقلت في الكتاب : « هو أول ديوان يظهر في العرب منذ الجاهليين إلى شوقي ويخلو من من المديح والرثاء . » هذا كأنّ غصوب أتى — من هذه الناحية — عملًا فذًا .

ذلك أن العرب أعوزهم من المؤهلات للشعر قوة الخيال ورقةُ الشعور : الميزتان اللتان ترافقان الميتولوجيا[1] عند الشعوب فجاء شعرهم « صحافة »[2] .

الصحافي في عصرنا يمدح زعيم الحزب ، والشاعر العربي يمدح الأمير . الاول يقوم على أثر مأتم سياسي كبير ، بتعداد مناقبه نثرًا ، والثاني يسرد سجايا فقيده نظمًا . ذاك يعمد في صحيفته إلى الدعاية لحزبه أو لنفسه ، وهذا يعمد في « قصيدته » إلى الفخر بقبيلته أو بنفسه . ذاك يعف من الحفلات المدنية

---

١) راجع للمؤلف : المرسح — المشرق المجلد ٣٠ الجزء الاول
٢) لا معنى

ملاحة هذه وتلك من السيدات الارستقراطيات ، وهذا يشبّب بهذه وتلك من نساء الحي . الاول ينهش في مقالاته كرامة خصومه السياسيين الذين لا يفتحون له صناديقهم ، والثاني يهجو بقصائده أميرًا قطع عنه دنانيره . و إذا اتفق أن يجيء مقال « صحافي الأمس » نظماً ، فلأن النظم سهل الحفظ يمكنه أن يجوز البلاد إلى البلاد فيؤدّي ما قصد بالصحافة من شهرة وتشهير . ولو كان للعرب مطابع وورق لما تكلفوا نظم هذه « المقالات » التي دُعيت « الشعر العربي » ، يوم كان الشعر منهم ما هي المطبعة منا.

و إذا يكون يوسف غصوب شاعرًا لا صحافيًا فلا نعدها له حسنة ، ونحن نأبى أن نجعل من الطعن على « الشعر الصحافي » مذهباً أدبياً تنضوي تحت لوائه، وكأننا أتينا العجب العجاب.

نحن في مثل هذا الموقف نكتفي بالقول : « إن يوسف غصوب كان شاعرًا عهدَ ظلّ اكثر « شعراء » العربية صحافيين ».

واجماعاً أنا لا امتدح من غصوب أنه في بعض نظمه عربي الديباجة ، عربي الفكر ، كانا البقاء على الاسلوب الواحد حسنة ؛ وانه هجر الحِكَم ، كانا وجودهُ حيًّا في جيلٍ حي يحسب فوق المعتاد ، وأنه لم ينظم في المناسبات، كانا الميل إلى الشعر دون الصحافة يعدّ اكثر من دعوة في قرارة النفس .

إن يوسف غصوب هو — لا اكثر ولا أقل — أول من نشر في العربية ديواناً يمكنُ نقده على ضوء الشعر.

وبعد ، ما قيمة غصوب ؟

أصدر الشاعر اللبناني ثلاث مأثورات شعرية : « القفص المهجور » ، و« القفص المهجور والموسجة الملتهبة » ، و « جمال » .

قد نذهب ، إذا تصفحنا الأثرين الاولين ، إلى ان « القفص المهجور » هو الديوان نفسه ينشر مرتين . على أن نظرة أدق ترينا ان بين الجزء الاول من الكتاب الثاني « والقفص المهجور » الأصلي فرقاً تهمنا معرفتهُ ، لأنه — على

صغره ــ صورة لظمأ الشاعر الى الرقي الفني .

شعر غصوب ؟ لا تنطبق نظرية التساوي في الجوهر[1] بين القصيدة ونفس صاحبها ، انطباقها على شعر غصوب ونفسه .

غصوب عالَمٌ صغير قلق ، عالم تحليلي (analytique) لا تأليفي (synthétique) ؛ لا يعرف ــ سنّة الحيّ من النفوس والفنون ــ ان يرى قرارًا ، فهو أبدًا حنينٌ إلى علُ ، واندفاعٌ إلى علُ ، وبلوغ شيء من عَلُ .

وكذلك قصيدته فهي قطعة خافقة ، تحليلية ــ لا تأليفية ــ في إتيانها على أجزاء الحالة الشعرية جزءًا جزءًا ، وهي أبدًا دأبٌ فنّي وعمل ظاهر الترقي ، وأخيرًا بلوغ شيء .

نزل ضوءًا على هذا القول :

إن مبدأ التساوي في الجوهر بين القصيدة ونفس صاحبها ــ وإن يكن المبدأ الذي لوحظ في كلّ الفنانين الكبار ، من صرامة رومانية كورنيل ، شاعر « الشعب الملك » ، التي رافقتها صرامة الطريقة في « الإنيد » ؛ إلى « دندية »[2] بودلير التي رافقتها « برناسية » الشكل في « أزهار الشر » ــ لا يُعدُّ مذهبًا خيرًا على الأدب ، الّا بقدر ما تكون عليه نفس صاحبه من غنىً .

أمّا غصوب ، موضوعنا اليوم ، فهو من الفنى ، في بيتٍ ، على الرغم من تواضع إثرائه ، اكيدِ الوجود ، ثبتِ الكيان ، مطلوقِ النوافذ على الآفاق .

غصوب ليس من تلك النفوس النادرة ، التي أُعطيت رسالة إنهاض عصر من العصور ، تشقّ أمامهُ آفاقًا بكرًا ، وتركزه ــ عفوَ العلم ــ في فلسفة راهنة ، حيث غبطة الركون الى وجودٍ ثبت ، او على الأقل إلى إيمان ثبت . لا وغصوب هو احدى النفوس التي تشاهد كل يوم ، على انها طليعة ، لا تنهض بجيل ولكنها تخلق في جوده شكًا ؛ لا تركزه في نعيم راهن ، ولكنها ترسل أمامه شعّةً على اللذة الأبدية . وبكلمة ليس غصوب ينبوعًا مستقلًا يكفي ، بجدّ

---

١) راجع للمؤلف مقدمة « المجدلية »

٢) مذهب يقوم على تأنق الروح والتصرف

ذاته ، عطاش الجيل ، لكنه مرحلة واحدة من الطريق القائمة على ضفة الساقية تنساب من الينبوع ، مرحلة من مراحل تمثل شعراء الحياة وتعوّض ، بمجموعها ، عن الينبوع الأكبر.

ولا يستخفّ أحد قيمة هـذا النوع من الشعراء ، الذين دعوتهم شعراء الحياة — مقابل شعراء الإيمان — فهم وحدهم يمكنهم، بسهولتهم ولذة قراءتهم ، أن يزحزحوا الجيل عن ضلاله ، ويعوّدوا أعيننا الوميضَ الناعم استعدادًا للفجر الرحب وللإيمان الثبت.

قلت : غصوب عالمٌ قلِق يخلع على القارئ قلقهُ فيوقظ، ويحثّ، ويكتفي. أعني أنه يحرّك ، لا يوجد . ولا يهمه الأفق الذي تحطّ عليه أنت ، ما دام لا يؤمن بأفق بعد ، ويكتفي بأن رماك في الفضاء ، ورماك متحركًا قلقًا :

على غارب الاحلام . . . . ذهبنا . . . . فجزنا بحار النور . . . . .

إن هذه الفِلَذ من القصيدة الاولى صور أمينة لهذا الصعود ، الصعود ليس الّا . وإذا يقول في آخر القصيدة :

وتحيون أفرادًا لكم من نفوسكم عوالم . . .
على صلة بالروح . . .
فتجلى لكم ، قبل المات ، عوامضٌ بحار ما [illegible] فوق ما يرى

فلا تظننها منه استقرارًا ، ونصيبُ منها « تجلى [illegible] يحض [illegible] من لا يرى فوق ما يرى ».

❊

وغصوب عالم تحليلي ، فكأنّ نفسه [illegible] يمكن [illegible] كلًا على حدة ، فترى الحياة عنده حالةً حالةً : فحنين ، و[illegible] ، ووحشة ، و[illegible] ، وخيبة ، وخطر زوال . فكأن الحياة التي يدخلك أياها غصوب حجرةٌ لا يعبق بوجيك منذ تفتح بابها ذلك الجوُّ الذي يريد الشاعر [illegible] عليك ، [illegible] ما يحدث لك عند شعراء الإيمان ، بل يظل [illegible] شيء [illegible] ترتج [illegible] ، حتى إذا أخذ الشاعر يطوّف بك على كل زاوية منها : [illegible] ، و[illegible] ، و[illegible] ، اكتمل لك جوّ القلق وكنت من الحجرة — وقل من الحياة — مغمورًا مثله بالجوّ الذي يريد . آخذ مثلًا قصيدته « جنة الأحلام » ، والعنوان يجسّد ذاته يغري النفوس

التأليفية . لكن غصوب ، غصوب التحليلي ، يقدّمه لي تحليلياً ، قطعاً قطعاً . فإذا أنا قد « طفتُ في جنة من الأحلام » ، وإذا معي « شقاء قلبي » ، وإذا أنا « في فسيح من الأرض » ، وإذا السماء « عُقدت بأوراق وزهر » ، وإذا « النور فائض » ؛ وإذا اشياء واشياء تمرّ أمامي حتى يكتمل لي الجو التحليلي ...

وشأن يوسف غصوب في القصيدة هو شأنه في البيت فبيته نفسه تحليلي ، ولهذا قلّما يخلو من النثرية إلى جنب الفِلذ العجيبة :

على غارب الاحلام ...

ألا ترى نفسك في هذه الفلذة من البيت الأول من القصيدة الاولى مغموراً بجوّ شعري خالص ؟ فتزاوج اللفظتين العجيب، ولا عهد لنا به ، والألفات الثلاث الممدودات كالاحلام الطوال ، والحروف الحلقية كالغين والحاء ، والانفية كالميم ، والهادرة كالراء ، كل ذلك يؤلف جوّاً موسيقياً عجيباً يجعل لهذه الفلذة ميزة تكاد لا تجدها في العربية ، وتعدّ بين أرق الفلذ الخالدة في غير العربية .

أما تمام البيت :

... في سانح الصحو (دهما) مع الآمال (نسعى) إلى المنى

فهو نثرية ، وتكفي هذه (الدهما) وهذه (النسعى) لتعكير ما انزلته الفلذة العجيبة . وإن في هذا البيت ، مزيج من الخلوص والنثرية ، صورة مصغرة لشعر يوسف غصوب .

وغصوب حنينٌ إلى علٍ ، واندفاعٌ إلى علٍ ، وبلوغ شيء من علٍ . وتلك نتيجة القلق الذي رأيناه عنده ، ومن من أحد يقلق لحالة ويريد بقاءها ، او يرضى استبدالها من مثلها .

وهكذا نرى في « جمال » ، آخر منترح غصوب ، كثيراً من « الاستقرار النفسي » « فجوع » نفسه الملحّ ، الذي تجلّى لنا في الاثرين الأولين ، ينتهي هنا الى مثل الايمان بشيء : سمه « الجمال » او سمه « كمال الخليقة » بل « التوهم بكمالها » إذ لا تجد في هذه القصيدة — التي عليها أن تمثل جمال الحياة بما في الحياة من حسن وقبح — اشارة الى همومٍ في المرأة، بل تجد الجمال اللامتناهي، الجمال المطلق.

والقصيدة نفسها – كقطعة فنيّة – تنتهي – شأنَ نفس الشاعر المستقرة شيئاً – إلى مثل استقرار في الفنّ .

ذهبت إلى أن فنّ غصوب في هـذه القصيدة تقدّم ولم يتبدّل ، لقد ملك زمامه وتركّز واستقرّ ، وقلّ نثريّة – وليس في الآداب شعرٌ خالص تام الخلوص – وبكلمة ان فن غصوب توّج حنينه إلى عَلٍ ببلوغ كثير من عَلٍ .

❁

نسهب قليلاً في درس جمالية[1] غصوب وتطوّرها :

تطالعنا منذ القصيدة الأولى « الشعراء »،فلذٌ كثيرة من الشعر الخالص كان بوسعها أن تسند جماع القصيدة لولا الطريقة التحليلية وما يتبعها من سهولة – وسبحان يوم صارت فيه «السهولة» هفوةً ، « والصعوبة » مزيّة؛على أن لا يحمل السطحيون قولي محملاً لا أقصده . وإذا قال الجماليون المحدثون بأن الصعوبة من شروط الفن ، فلا يعنون بالصعوبة تلك التي تنتج عن الألفاظ العويصة ، أو عن التركيب اللغوي المعقّد . الصعوبة التي اعني هي صعوبـة الجوّ التي ترافق دوماً من يحاول أن يحدّ اللامحدود .

ومن الأدلّة على هذه السهولة عند غصوب ، وقل هـذه التحليلية أيضاً ، أنك تجد عنده من حروف العطف – تلك الحروف التي تؤذن بجمل مستقلة – الشيء الكثير. قال :

فجزنا . . فكان . . . وتلتنا . . . وحلّت . . . وطهّرنا . . . وأودعنا . . . ولطّف . . . وقال . . .

كل ذلك في أبيات قلائل من قصيدة واحدة .

ومن الادلة على التحليلية هـذا الاسترسال في الوصف الذي يرافق طريقة غصوب حتى إلى « جمال » فيجعل أبداً من الشطر الثاني من بيته نعتاً طويلاً . فهو يقول :

وحلّت بنـا روح الإلـه ، فقلبنا كمهبط وحي (فاض بالنور والهدى)
وتبنون للاوطان مجـداً مخلّداً ، بشعر (قوافيـه من القلب والنهى)

---

1) Esthétique

وتترب حتى تنجبل شرارة (تفني مع الانوار في منبع السنى)

...

عرفت من قبل فيه صادحاً (في اناشيد الهوى يترسل)
أو فراشات (إذا ما كلفت نقل اسرار الهوى ، تمثل)
مستديرات ، حيارى ، (كلما حرّك النصنَ الهوا ، تنتقلُ)
وترى في القفص الخالي ، لما منظرًا (فاضت لديه المقل)

ومثل هذه الشواهد كثيرة في ديوان غصوب . أمّا في « جمال » فنادرة.

أفاقت على فجر عجيب ونفحة سماوية (من راحتيك تضوعُ)
فنحن ضراعات اليك ، واعينٌ شواخص (في احداقهن وميضُ)

على أن هذه الواصفات الفضلة هنا تزيد المسند غنىً ، كما ترى في « سماوية من راحتيك تضوع » .

ومن الأدلة على التحليلية أيضاً هذا التشبيه ، والتشبيه المسبوق بأداته . ففي الأربعة الأبيات الأولى من قصيدة في جوّ « الوحشة » ثلاثة تشابيه بثلاث كافات :

« كسراج . . . كالشموع . . . أو كمين . . . »

أمّا في « جمال » فلا تقع ، رغم رحابة القصيدة ، إلّا على تشبيه واحد :

. . . . .كانه شراعٌ بآفاق الخيال يسير

الانتهاء بنعت طويل ، استعمال أدوات التشبيه ، السهولة ، وبكلمة كلّ هذه النثرية في شعر غصوب هي ظواهر تمثلُ ما اعطته إياه طريقة العرب التحليلية . فإذا نلاحظ أن هذه التحليلية ، هذه النثرية ، كادت أن تمحي تماماً في « جمال » ، ندرك أيّ وثبة قام بها فنّ غصوب .

على أن يوسعنا أن نرى في بعض قطع من شعره الأول تنبؤًا بهذه الرتبة . ففي « جنة الأحلام » أبيات تبلغ من الخلوص أرقى ما تصل إليه « جمال » ، وكدت أقول أرقى ما يصل إليه شعر أوربة الخالص :

هذه غايةُ الأمانيّ / هلّا رقدةٌ في ظلالها / بسلام /
تتلاشى انفاسُنا / في هدوء / دونما حسرةٍ / ولا آلام /
(مثلا) تفتقد الزهور شذاها / حانتاتٍ / في جنة الأحلام /

إن « الهاء » من « هذه » فحروف اللين التي تبلغ الخمسة في الشطر الأول

وحده ، فاليائين المعلّتين في « غاية وأماني » والقطع قبـل آخر الشطر الأول بكلمة ، وقبل آخر الشطر الثاني من البيت الأول بكلمة ايضاً ، إلخ. إلخ. وهذه المحاكاة المتشوّقة بين هاءات « هذه وهلّا وظلالها » والتلاشية بين الشين والسين في « تلاشى وأنفاسنا » والمغنية كالنغم في دالَي « هدوء ودوغا » المسنودتين بحرفي لين ، ثم هذا البيت الأخير المتصاعد نفساً في شطره الأول بين حرفي حلق خافتين (الهائين) ، المتهدّم شوقاً في شطره الثاني بين حرفي حلق أقوى (الحائين) ، كل ذلك يتزل عليـك جوّ حالة من الغبطة تشتاقها الروح إلى حدّ التلاشي ، ويتزله جوّاً يبلغ من الخلوص حدّاً قصيّاً .

وبعد فيوسف غصوب قد رفعه حنينُه إلى علٍ ، من حالة « القلق » إلى شيء من « الاستقرار » . ودفع بفنه من عروض الشعر العربي المزيج من الشعر والنثرية وقل : المزيج من عنجهيّة الصحراء وصوفيّتها ، الى حدود جمالية الشعر الخالص ، اندفاعَ لبنان ، بعد الحرب ، من سُباته ، إلى الإيمان برسالتِه التي ، وإن لم تتخلَّ عن الجزيرة اللاهبة ، تكتّل عملها في حوض البحر المتوسّط الرحب الماضي ، والرحب الرسالة .

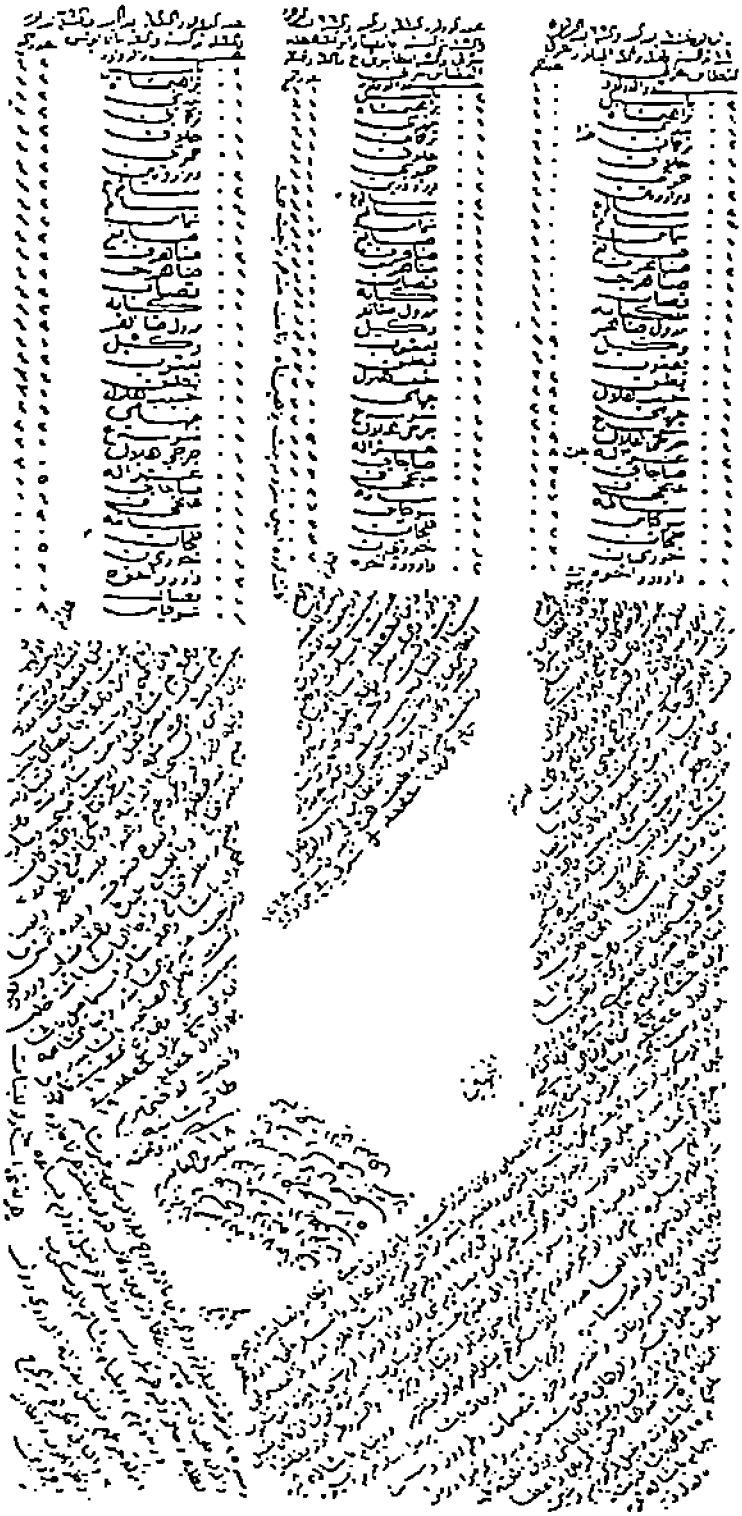

الرسم ١ : صفحة من المخطوطة